

زقورة بابل ومشاكل امكان اعادة بنائها

طه باقر

الاستاذ بقسم الاثار

كلية الاداب - جامعة بغداد

حضرات السيدات والسادة :

موضوع كلمتي (كما سمعتم) بعض الملاحظات الموجزة^(١) عن برج بابل الشهير ، والمشاكل التي تكتنف محاولة اعادة بنائه .

وقبل ان اورد ملاحظاتي عن الموضوع اود ان اذكر حضراتكم انكم لا شك وان لاحظتم من زيارتنا لمدينة بابل امس مبلغ المشاكل والجهود التي تجابه المسؤولين في مؤسسة الاثار ، وفي مقدمتهم رئيس المؤسسة الدكتور سعيد والجماعة المشرفة على اعمال التحريات والصيانة في بابل فلا اشك في انكم تضمون اصواتكم الى صوتي في ازجاء التشجيع والثناء لهم على جهودهم ومنجزاتهم . متمنين لهم النجاح والتوفيق .

وقد يبدو من باب التناقض اننا بدلا من ان نسهم في حل تلك المشاكل اضيف الان في كلمتي هذه مشكلة اخرى الى تلك المشاكل التي تجابه هيئة العمل في بابل واعني بذلك محاولة اعادة بناء برج بابل التي هي في رأيي مشكلة المشاكل . فهناك كما سمعتم ، فكرة لدى المؤسسة انها عازمة على اعادة بناء البرج . او بالاحرى ان يقال بناء برج جديد وليس صيانة البرج القديم ، لانه لم يبق من بقايا البرج الاصيلي سوى الجزء الاسفل من « لب » القاعدة السفلى وهو من اللبن .

وليس غريبا ان يتجه ثموح المسؤولين في مؤسسة الاثار الى هذه المحاولة الجريئة في ضوء الشهرة العالمية الواسعة التي رافقت اسم مدينة بابل في العالم القديم والحديث بحيث ان اثنتين من عجائب الدنيا السبع كانتا في بابل ، وهما اسوارها وجنائنها المعلقة . وكانت بابل نفسها اعجوبة الدنيا القديمة حتى ان اعداءها اليهود اعترفوا بعظمتها ومجدها كما جاء ذلك في توراتهم فنقرأ مثلا في سفر « ارميا : » ان بابل كأس ذهب بيد الرب جعلت الشعوب سكري .»

وانبهر بشهرة بابل وجدها حتى اليونان بحيث ان فيلسوفهم الشهير « ارسطو » الذي لم يكن موضوعه عن الجغرافية ذكر في كتابه السياسة : « ان بابل كانت اعظم مدينة في العالم » .

ولم يكون هذا الفيلسوف مغاليا او مبالغاً فان بابل اصبحت ف عهد ملكها الشهير « نبوخذ نصر » (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) اعظم مدينة عرفها العالم القديم ، فقد كانت مساحتها نحو (٢٥٠٠) ايكرا (ويساوي الايكر الواحد زهاء ٤٠٠٠ م^٢) (وبعبارة اخرى بلغت مساحتها ١٠/٠٠٠ هكتار باعتبار ان الهكتار يساوي ١٠/٠٠٠ م^٢) . واذا ما قارنا هذه المساحة الكبيرة بمساحات اشهر المدن القديمة وجدنا مساحة بابل تربو على مساحة اعظم مدينة في العالم . فمثلا بلغت مساحة نينور (عاصمة الامبراطورية الاشورية) حوالي

(١) لم يكن المقصود من مثل هذه الكلمات الموجزة التي القيت في الندوة الاترية التي اقامتها المؤسسة عن بابل واشور ان تكون من نوع البحوث المتكاملة المسهبة بل مجرد ملاحظات وراء عامة .

(١٨/٥٠) ايكرا وبلغ اعظم اتساع لمدينة « اثينا » اليونانية في عهد « بريقلس » نحو (٥٥٠) ايكرا .

ان هذه الحقائق وغيرها اكسبت بابل شهرة لا تضارعها شهرة مدينة اخرى في العالم القديم فلا عجب اذا ما توجهت اليها انظار ابناء العالم الحديث وانصبت على اعمارها جهود حكومة الثورة ورعايتها متمثلة بالجهود المحمودة التي اضطلعت بها مؤسسة الانار .

وتأتي الان الى المشاكل التي تكتنف زقورة بابل ومحاولة اعادة بنائها التي ينبغي كما هو واضح لحضراتكم ان تسند الى اسس اثرية وعلمية في ضوء ما عدنا من معلومات اثرية ونصوصية عن شكلها وابعادها وما اظهرته لنا التنقيبات الاتارية الحديثة التي اجراها المنقبون الالمان في مطلع هذا القرن . ان كل ذلك ضروري لمساعدة من يحاول اعادة بنائها . وعلى ما هو معروف لدى المختصين في الموضوع يمكن حصر مصادرنا التاريخية عن برج بابل بالانواع الاتية :

١ - النصوص المسماية (Cuneiform Texts)

٢ - التوراة

٣ - المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) وبوجه خاص وصف (هيرودوتس) (القرن الخامس ق.م) للبرج . واذا ما بدأنا بالتوراة وجدنا غريب ما ذكر عن البرج وان ما جاء فيها (سفر التكوين) لا يمت الى الحقيقة التاريخية في شيء سواء كان ذلك من ناحية وصف شكل البرج ام الاغراض التي انشء من اجلها ، بل يمكن القول ان تصوير التوراة للبرج ولاغراضه جاء معكوسا ولا يمت الى الحقيقة من شيء بل هو تشويه متعمد نشأ نشأ ولا شك من حقد اليهود من مدوني التوراة الذي اعماهم عن ذكر الحقيقة التي لا يشك من انهم كانوا يعرفونها ، اي لاغراض التي كانت تشيد من اجلها الابراج المدرجة (الزقورات) في حضارة وادي الرافدين . وخلاصة ما جاء في سفر التكوين عن برج بابل ان الناس كانوا يتكلمون بلسان واحد .. الخ وجاءوا الى سهل شنعار فأروا ان يشيدوا لهم بناء عاليا (واسمه في العبرانية مكدول) يرقوا به الى ابواب السماء وينافسوا الرب ، فانتم منهم ولبلب السنتم وشتتهم ، واوردت التوراة اشتقاقا غريبا لاسم بابل وانه من بلبله الالسنة . بيد اننا نعرف ان معنى اسم بابل لا علاقة له بهذا التفسير الخاطي بل المغرض من جانب مدوني التوراة . وخلاصة القول لا تفيدنا التوراة باي شيء عن بابل وعن برجها بشيء يمت الى الواقع التاريخي .

وتأتي الان الى تلخيص ما جاء في المصادر الكلاسيكية عن برج بابل ونقتصر من ذلك على اقدم واشهر بل اوثق رواية عن هذا البرج في وصف هيرودوتس الشهير له في كتابه الاول (الفترات من ١٨١ فما بعد) وهو وصف يكاد ان يكون اقرب النصوص التاريخية الى الواقع . ولا اريد ان اطيل الحديث لحضراتكم عن تحليل رواية هيرودوتس وقد سبقني في ذلك الاستاذ « دي ماير » الذي لخص جميع ما جاء عن بابل في تاريخ هيرودوتس ، ولذلك فاني ساقترع على بعض النقاط المهمة التي لها علاقة مباشرة باعطائنا صورة عن شكل البرج وابعاده . واول ما اذكر التنويه بشكوك بعض الباحثين المحدثين في ان هيرودوتس زار حقيقة مدينة بابل ، وقد نجمت تلك الشكوك من بعض الروايات المتضاربة الواردة في وصفه للمدينة مثل البالغة في طول اسوارها (جعل طولها زهاء اربع مرات من الحقيقة) واهم من ذلك وصفه للبرج الذي جاء وأن البرج كان في زمن زيارته كاملا سالما في حين ان هناك احتمالا قويا بانه زار بابل في زمن كانت فيه معظم مباني المدينة ومنها البرج قد اوقع بها التخريب والتدمير على يد الملك الفارسي الاخميني « اخشويرش الاول » (٤٨٥ - ٤٦٥ ق.م) الامر الذي حملنا على الشك في ان الوصف الذي اورده هيرودوتس لم يكن بصفته شاهد عيان بل مما ذكره له اهل بابل ولا سيما الكهنة منهم . ولا حاجة لايراد الوصف الجميل الذي اورده للبرج وكيف انه كان يتألف من سبع طبقات (وجعل المعبد العالي في قمة البرج وكأنه طبقة ثانية) . كما وانه بالغ في علو البرج ومساحة كل طبقة من طبقاته ، فقد جعل قياسات الطبقة الاولى نحو ٨/١ اليل طولاً وعرضا « C » اي زهاء (٢٠٠ متر) في حين ان القياس الواقعي كان نحو (٩١/٥٢ خ ٩١ك٥٢ متر) . واذا تجاوزنا مثل هذه الهفوات وجدنا ان وصف هيرودوتس اقرب الى الحقيقة من اي رواية تاريخية كما مثلنا ومن ذلك وصف السلالم الثلاثة للبرج والمعبد العالي وقصة وجود الكاهنة العليا المكرسة لاله « مردوخ » (بيل) ونزول هذا الاله من السماء الى غير ذلك من

(٢) ذكر المقياس في الترجمة الانجليزية لكتاب هيرودوتس :

وتأتي ذكر المقياس في الترجمة الانجليزية لكتاب هيرودوتس : وهو مقياس انجليزي يساوي نحو ٨/١ اليل Bhl , 181G.Rawlison , the Histoky of Herodotus بانه الفرانك (Furlong) وهو مقياس انجليزي يساوي نحو ٨/١ اليل

الاراء الممتعة والقريبة الى معتقدات البابليين في تفسير الابراج المدرجة والاعراض التي كان تشيد من اجلها . وقبل انترك رواية هيرودوتس لا بد ان نشير هنا الى مسألة ما يدعى بالجنانن المعلقة . التي ذكرها معظم الكتاب اليونان والرومان ولكن لم يرد لها اي ذكر في هيرودوتس على انه ليس من موضوعنا ولا يسمح لنا الوقت في التحدث عن هذا اللغز الاثري ، اي الجنانن المعلقة التي قلنا انها كانت هي واسوار بابل احدى عجائب الدنيا السبع بحسب ما ذكره بعض الكتاب الكلاسيكيين .

النصوص المسارية :

بعد الملاحظات التي اوردتها عن اشهر الاخبار التاريخية فيما يتعلق ببرج بابل تأتي الى ايجاز ما يمكن ان نجده من معلومات عن البرج في المصادر المسارية وفي مقدمتها : متى شيد برج بابل ومن شيدته ؟ وكيف كان شكله ؟ ولعل اول ما يتبادر الى الذهن الرجوع الى زمن حمورابي الشهير الذي

بلغت في عهده بابل شهرة واسعة واصبحت عاصمة امبراطورية ذلك العاهل الشهير (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) فالتوقع ان يكون البرج قد شيد في زمنه . ويبدو ان هذا الافتراض غير صحيح كما تدل على ذلك النصوص المهمة التي وردت في شريعته المشهورة ، ونعني بذلك مقدمة تلك الشريعة التي كانت اهم مصدر لمعرفة اسماء المعابد وابراجها في معظم المدن المهمة في العراق القديم ، فلا نجد فيها ذكر لاسم برج بابل الذي اشتهر به واعني بذلك « اي - ثمن - انكي » (E - TEMEN - AN - KI) في حين ذكر اسم المعبد الرئيسي وهو اي - ساكلا (E - sagila) ذات اهمية خاصة بالنسبة الى زمن تشييد البرج . اي ان هذا الزمن يأتي من بعد زمن حمورابي واذن متى شيدت « زقورة بابل » (اي - ثمن - انكي) ؟ واذا كنا لا نستطيع ان نحل هذا التساؤل حلا مباشرا فبامكاننا ان نستعين بنص ادبي مشهور ، ذلك هو اسطورة الخليفة البابلية (التي تعرف في البابلية بعنوانها المأخوذ من اول عبارة فيها وهو (اينا اوحينا عبش اي حيننا في العلا) . ففي اللوح السادس من الاسطورة التي تتضمن كما تعلمون اكثر من الف بيت من الشعر) عبارة صريحة في ان الالهة بعد ان انتخبوا « مردوخ » ملكا عليهم بنوا له معبده « ايسا - كلا ويرجه وذكرنا طرحة باسمه المألوف وهو « اي - ثمن - انكي » ولكن هذه الاشارة المهمة لا تعطينا تاريخا محدد الزمن تشييد البرج ، لاننا لا نعلم بوجه التأكيد زمن تأليف اسطورة الخليفة بالضبط ، وانما يخمن الباحثون ان هذا التاريخ يقع في اواخر الالف الـ ثاني ق.م اي في العهد المعروف في تاريخ العراق القديم بالعصر البابلي الوسيط Middle Babylonian Period (في حدود ١٥٠٠ - ١٠٠٠ ق.م) وخلاصة ما نستطيع ان نستنتج من هذه الاشارة ان البرج كان موجودا في بابل في حدود ذلك الزمن . ويؤيد ذلك النصان المساريان الاخران اللذان وردا في مدونات الملك البابلي « نوبولاصر » (٦٢٧ - ٦٠٥ ق.م) ونص ابنه الشهير « نوبخذ نصر » (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) .

ونبدأ بتخليص ما جاء في اسطوانة « نوبولاصر » اول ما يمكن استنتاجه ان البرج كان موجودا قبل زمنه ولكن كان متداعيا في زمنه فباشر باعادة بنائه ولكنه لم يكمله بل ان الذي اكمله هو ابنه « نوبخذ نصر » والمرجع ، استنادا الى هذا النص انه هيا اسسه واقام القاعدتين السفلى والتي فوقها ثم اكمل البناء ابنه كما قلنا . ولعله من المفيد ان نورد نص ترجمة النص فيما يتعلق بالبرج (٣) امرني انثذاك الرب مردوخ ان اعيد بناء البرج « اي - ثمن - انكي » الذي تدعاه قبل عهدي ، وارسي جدرانه في اعماق الارض وجعل نهايته (ارتفاعه) تضاهي علو السماء احضرت الفؤوس وقوالب اللبن (المصنوعة) من العاج وهيأت الاخشاب القوية (خشب الاتوهو وخشب : « المس - ما - كان - نا (المسك) » ... وجمعت العمال ليحملوا الطين والاجر ... واشرفت بنفسي على المقاسات . ومد الفينون الخيوط وحدودا الحدود ... وقمت بتنظيف المكان ووضعت في الاسس الاس والذهب والفضة واحجار الجبال والبحار ووضعت تحت اللبن الزيت اللهاق النقي والاعشاب ذات الرائحة الزكية ، وامرت بصنع تمثال لي وانا احمل طاسة الطين ودفنه في الاساس .. « واخيت رأسي امام سيدي مردوخ وكنت احمل فوق رأسي الاجر والطين وانا في ردائي الملكي ... وجعلت نوبخذ نصر ابني البكر ، وجيب قلبي يحمل مواد البناء مثل سائر الناس ... وجعلت « نوب - سوم - لشر اخاه الاصغر ، وزهرة قلبي يخلط الطين والشراب والزيت والاعشاب ويمسك بالمر ويحمل على رأسه سلة الاجر ... » ومثل اي - شرا ، شيدت بيتا وسط الافراح وجعلت رأسه عاليا مثل الجبل ، من اجل مردوخ سيدي وامرت بزخرفته كما كان في ايامه الماضية ، وهو يثير العجب . « فيا سيدي مردوخ عساك ان تنظر بعين الرضا الى عجلي وان تجعله خالدا الى الابد ، وادعوك ان تثبت عرشي الى قابل الايام البعيدة وتجعله دائما مثل بناء الـ « اي - ثمن - انكي »

فيا « اي - ثمن - انكي » عساك ان تبارك الملك الذي قام بتحديدك ، واذا ما سكن فيك مردوخ فتذكر ايها المعبد تقاي وصلاحي امام سيدي مردوخ » .

نص تجديد البرج في اسطوانة « نبوخذ نصر » : -

ومع القارئ لاسطوانة « نبولاصر » قد يستنتج ان هذا الملك قد اكمل اعادة بناء البرج الا ان الواقع كان خلاف لك كما يدل على ذلك صراحة ما جاء في اسطوانة ابنه « نبوخذ نصر » الذي يمكن عده هو المشيد لبرج بابل في شكله النهائي الذي وصلت اليه في العهد البابلي المتأخر الذي جعل فيه اخر تطور للابراج المدرجة في حضارة وادي الرافدين من حيث عدد طبقاتها السبع وسلالمها الثلاثة وفي التفاصيل المعمارية الاخرى . كما كان نبوخذ نصر كما اظهرت نتائج التنقيبات الالمانية في بابل الباني الرئيسي لاهم ابنية هذه المدينة امعظمة ومنها اسوارها وقصورها ومعابدها الشهيرة .

ونقتبس الفقرات المتعلقة ببنائه للبرج : « اي - ثمن - انكي » زقورة بابل التي نظف موقعها نبولاصر ، ملك بابل والدي ووضع احجار اسسها واقام جدرانها الخارجية بالاجر والقيمر الى ارتفاع (٣٠) ذراعا ولكنه لم يقم بتعليق قمته ... الخ . وخالصة ما جاء في نص نبوخذ نصر ان اباه نبولاصر لم ينججز من بناء البرج سوى (٣٠) ذراعا في الارتفاع (اي زهاء (١٥) مترا) من علو البرج الكلي الذي يناهز الـ ٩٢ مترا اي انه اتم بناء نصف الطبقة السفلى ، على هيئة صندوق او تجويف من الاجر ملامه نبوخذ نصر باللبن ثم اكمل البناء .

لوح « ايسا كلا » اللوح السلوقي :

واذا كانت النصوص المسارية التي اوردناها لا تفيدنا كثيرا بالنسبة الى قياسات وابعاد زقورة بابل فهناك نص مساري على جانب كبير من الاهمية من حيث التفاصيل التي يعطيها عن البرج وارتفاعات قواعده ، ونعني بذلك ما يعرف باللوح السلوقي للكاتب البابلي « انو - بيل - شونو » وعثر عليه في مدينة الوركاء ، وارجح في السنة السلوقية ٨٢ وفي السادس والعشرين من شهر « كيسليمو » ويوافق ذلك العام ٢٢٩ ق.م الثاني عشر من شهر كانون الثاني من زمن الملك .. سلوقس » وانه نسخة عن نص اقدم يعرف برقيم « ايسا كلا » ولكن ما جاء عن البرج من معلومات اكثر بكثير مما ذكر عن المعبد الارضي « ايسا كلا » ويكن الاعتماد على تلك الابعاد اية محاولة لاعادة بناء البرج واخذ فكرة تقارب الحقيقة عن شكلها وقد امكن التوصل الى الابعاد الاتية محسوبة بالاقدام :

الارتفاع	العرض	الطول	
١٠٨	٢٩٥	٢٩٥	الطبقة الاولى
٥٩	٢٥٦	٢٥٦	الطبقة الثانية
١٩ ٣/٤	١٩٧	١٩٧	الطبقة الثالثة
١٩ ٣/٤	١٦٧ ١/٢	١٦٧ ١/٢	الطبقة الرابعة
١٩ ٣/٤	١٣٨	١٣٨	الطبقة الخامسة
١٩ ٣/٤	١٠٨ ١/٢	١٠٨ ١/٢	الطبقة السادسة
٤٩	٧٩	٧٩	الطبقة السابعة

المعلومات المستقلة من نتائج التنقيبات :

ان التحريات التي اجراها « كولداوي » من بقايا البرج (١٩١٣) نتجت نتائج مهمة اذا اضيفت الى المعلومات المستنتجة من النصوص المسارية ، على الرغم من انه لم يبق من البرج ابا ن التنقيبات سوى الاجزاء السفلى منه ، اي القاعدة السفلى التي انتزع معظم اجزائها حيث تعرضت بماني بابل الى نهب فضيع لاجره منذ اقدم العصور .

ويمكن نتائج التنقيبات بالمعلومات الاتية :

السلالم الثلاثة الواقعة في الضلع الجنوبية من البرج . فالسلم الوسطي وعرضه ٩/٣٥ م وكان يؤدي الى وسط البرج وطوله نحو (٦٠ م) والسلمان الجانبيان وعرض كل منهما (٨/٣٠ م) ولا يعلم مقدار طولها لان المنقبين لم يعثروا على نهايتها . والمحتمل جدا ان السلمين الجانبيين كانا يلتقيان في وسط الحافة العليا للطبقة السفلى اي بارتفاع ٣٣/٥٩ م) وقد قصت نهايتها واقيم صحن مشترك بعرض السلم .

اما السلم الوسطي فكان لا يلتقي في صحن السلمين الجانبيين بل فوقها بعلو كبير ، كان يختفي داخل الطبقات ٣ - ٦ حتى يبلغ الغرفة الوسطية للمعبد العالي في الطبقة السابعة . ومن النتائج التي توصل اليها المنقبون ويتفق الكثير منها مع المعلومات الواردة في النصوص التاريخية ان البرج كان من النوع المربع حيث الطبقة السفلى ٩١/٥٠ × ٩١/٥٠ م كما ان ارتفاع البرج كان بقدر عرض هذه القاعدة اي زهاء (١٩٢ م) وقد شيد البرج باللبن بتخن (٦٠ م) القاعدة السفلى) وغلفت الواجهه ببناء من الاجر والقير بسلك ١٥ × ١٥ م .

اعتراضاتي على محاولة اعادة بناء البرج

يتضح مما ذكرناه من المعلومات المتوفرة عن شكل برج بابل وابعاده ان هناك عدة قضايا ومشاكل تعترض بل تحول دون اية محاولة لاعادة بنائه ، بالإضافة الى مثل هذه المحاولة سوف لن تكون صيانة البرج بل بناء برج جديد وهو ما لا تقره المبادئ المتعارف عليها في صيانة المباني الاثرية ناهيك من النفقات الباهضة التي يتطلبها هذا المشروع الضخم والمشاكل المعمارية والفنية التي اعتقد ان حلها الحل الصحيح سيتعذر على اصهر البنائين المحدثين .

واذن ما هو البديل عن اعادة بناء البرج ؟

وللاجابة على التساؤل اود ان ابين لحضراتكم ان مؤسسة الاثار العراقية فكرت منذ الستينات حينما كنت انا والمرحوم الاستاذ فؤاد سفر مسئولين عن الاثار . بشر وعين يمكن ان يكونا احسن بديلين لاعادة بناء البرج ، ويمكن انجاز احدهما او كليهما باطمئنان وثقة من النواحي العلمية والفنية وهما :

١ - بناء نموذج (ماكيت) مصغر للبرج في العراء بالقرب من موقع البرج الان بمقياس ١٠/٨ من البرج الاصلي اي ان هذا النموذج سيكون في طبقته السفلى بقياس ١٠ × ١٠ وارتفاعه عشرة امتار ايضا ووسع طبقات حسب المقاييس المستقاة من النصوص ال المسارية وفي رأي ان هذا النموذج سيعطي فكرة جيدة لشكل البرج الاصلي ويمكن الزائرين من التسلق فوقه والتمتع بمشاهد مدينة بابل .

٢ - هناك بقايا برج كبير غير بعيد عن مدينة بابل واعني بذلك بقايا برج مدينة « بورسبا » نحو ٢٥ كم الى الجنوب من بابل) ويمكن الاستنتاج من ارتفاع بقايا الانقاض البالغة زهاء (٤٧ م) عن السهل اننا لو رفعنا هذه الانقاض وتحريتنا ما تغطية من بقايا اننا سنعثر عما لا يقل عن الطبقتين السفليين للبرج مع بقايا السلالم الثلاثة . وبالإضافة الى ان هذا العمل يقع ضمن واجبات المؤسسة الاتية ضمن منهج الصيانة الاثرية ، فان النتائج التي ستحصل عليها ستكون نتائج مجدية في اظهار معالم برج شهير من الابراج المدرجة التي اشترت بها حضارة وادي الرافدين . واظن ان التحري برج بورسبا وفي بقايا المدينة الاخرى هو الان ضمن مشاريع الصيانة والتحريات عند المؤسسة .

وخلاصة ما اود عرضه هو ان اكرر اهجابي وثنائي لمؤسسة الاثار على جهودها المحمودة في الحفاظ على تراثنا الحضاري وابراره بالشكل اللائق من بعد ان ناله الاهمال في العقود السابقة . واتمنى في الوقت نفسه ان تترتب المؤسسة بالنسبة الى مشروع اعادة بناء برج بابل ومن الله التوفيق